الفصل السادس

التصوف والنهضة
وجهًا لوجه عند حسن حنفي[1]

تمهيد

يدور التصوف كله حول الأخلاق وفضائلها، فهو محض سلوكيات تبرز حقيقة وجوهر السالكين، تلك الأخلاق يؤمن بها الباطن، وتبديها الجوارح في المعاملات والسلوكيات والأخلاقيات، عبر ثياب تأسر الناظرين، وتلقى القبول من الأعداء والمحبين.

التصوف قاطرة للتنمية والأخلاق والصدق واليقين والحب والإخلاص لله وحده سبحانه لا شريك له، التصوف يعنى زلزال بداخل السالك، اضطراب قلب معلق بالله، وبدن معرض عن الدنيا، لأجل الوصول إلى القرب القريب، ولن يصل إليه إلا كل مبرأ عن المواد وأثقالها، كل مخلّص من الشوائب والنواقص[2].

(1) بقلم: دكتور محمد ممدوح علي عبدالمجيد، دكتوراه الفلسفة من جامعة القاهرة.

(2) د. سعاد الحكيم، عودة الواصل، مؤسسة دندرة للدراسات، بيروت، لبنان، د.ت، ص68.

وللتصوف أخلاق تميز أصحابه عن بقية الطوائف الإسلامية، هذه الأخلاق نبعت من جوهر الإسلام ومعينه الصافى، من أخلاق النبوة التى تفيض رقةً وحنانًا على عموم بنى البشر، إنها أخلاق الإسلام، الدين الخاتم الذى ارتضاه لنا رسولنا الكريم فيما قص علينا ربنا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وإلى جوار هذه الأخلاق نبعت آليات الوصول إلى الله سبحانه، فهو المقصود الأول لدى الصوفية، هو كل شىء، وبه كل شىء، هو المطلوب الأول والأخير، والغاية الأولى والقصوى.

تلك الآليات من توبة وورع وصدق ورضا وإخلاص ومراقبة ويقين هى التى يسميها مؤرخى التصوف استنادًا إلى بعض السادة الصوفية باسم «المقامات»، ثم تسمية ثمرات تلك المقامات من محبة وشوق وأنس وقرب وفناء وبقاء باسم «الأحوال».

وهذان المسميان نالا الكثير من الإعتراضات خاصة عند المغرضين الذين يبحثون عن كل ثغرة فى الإسلام يحسبونها عورة فيتسللون منها، فينقدون أهل التصوف، ما لهولاء القوم لهم مقامات وأحوال، والإسلام لم يتحدث لا عن مقامات ولا عن أحوال!!

إذا كانت تلك هى الأزمة، أزمة التسمية، إذن فلنعرض عن هذين الإسمين ولنقل «الآليات والثمرات» فالآليات ترمز إلى المقامات، والثمرات ترمز إلى الأحوال، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

ولكن الموضوع أكبر من العداء لمجرد التسمية بكثير، ففضلاً عن أن تلك المصطلحات تؤدى إلى زعزعة الفهم لدى العامة، فإنها أيضًا تكون

ذريعة لدى المتشددين لترسيخ تلك الزعزعة عند العامة وتعميقها، لماذا؟ لا أدرى!! هم يزعمون أنهم يدافعون عن السنة!! حسنًا .. فلنسأل إذن، وهل يوجد فى أخلاق التصوف الحقيقى الذى نقصده، ومقاماته وأحواله ما يضار السنة؟! التصوف خلق وتوبة وورع ويقين وإخلاص وعمل بالقلب للفرائض قبل الجوارح؟ فهل هذا مما يشين السنة أم مما يزينها؟ أليست تلك هى مقاصد السنة وجوهر هذا الدين؟

ثم إن المقصود بالمقامات أن ينتقل الصوفى السالك فى رحلة صعود قلبه إلى بارئه بعدة درجات تشبه السُلم، فإذا حقق درجة انتهى إلى أخرى، وأليس الإسلام بهذا المعنى درجات ومقامات، فمقام للمسلمين، ومقام للمؤمنين، وآخر للمحسنين، وآخر لأصحاب اليمين، وآخر للمقربين، وآخر للمكذبين الضالين، أليس كذلك؟!

ثم إن هذه المقامات بمثابة خط تعريفى للسالكين فقط، للإنتقال من التوبة إلى الزهد إلى المراقبة ثم إلى الورع ليحقق حبًا لله سبحانه ورضًا بقضائه، ومن ثمّ فتسمية المقامات بأى مسمى آخر لا شىء فيه أبدًا كأن نسميها آليات الوصول أو درجات معراج الواصلين، كل درجة لها اسم معين هو ذات اسم المقام وهذا لا ضير فيه أبدًا.

إذن ليس المهم فى التسمية بقدر أن يكون الهدف هو تحقيق تلك المسميات فعلاً ولو بدون مسمى، فليزهد الناس وليسموا زهدهم كيفما شاءوا، وليحققوا الورع ويسموه كيفما شاءوا، وهكذا، ليس المهم فى اسم الشئ ولكن الأهم جوهره. وإنى ليغلبنى الظن بأن مقامات التصوف كلها تدور حول الزهد والمراقبة تحقيقًا للورع، والنتيجة اللازمة للحب والرضا

بما يفعله المحبوب، ويؤيدنى فى تلك النظرة الملخصة للتصوف السيد أبو الفيض المنوفى إذ يقول: «وإنى بمبلغ علمى وقدر سعيى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمراتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت، فأحد الحقائق الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح، والثانى الزهد فى الدنيا، والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرًا وباطنًا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور أو قصور ثم يُستعان على هذه الأربع بأربع أخرى بعد تمامها وقوامها وهى قلة الكلام - قلة الطعام - قلة المنام - ومفارقة الأنام»[1].

ما أجمل هذا الكلام، وما أروع هذا المنطق.. التصوف أخلاق روحانية وجدانية تنبعث بالأساس من الداخل ثم يبدو أثرها فى الخارج، تلك هى أخلاق ومقامات التصوف.

من هذه الأخلاق تُربى النفس..يطمئن القلب..لكن المفاجئة تكون من المفكر الكبير د.حسن حنفى فى إثارة القضية «التصوف عائق للنهضة»..

تُرى هل تكون تلك الأخلاق عائقًا للنهضة؟ وهل تُبنى الأمم على شىء أهم من الأخلاق؟ وهل التصوف يمثل قوة أم ضعفًا؟..تلك فى مجملها أسئلة فى حاجة إلى إجابات حاسمة، وإشكالات لابد من مواجهتها..

(1) السيد أبو الفيض المنوفى، التصوف الإسلامى الخالص، دار نهضة مصر، القاهرة، 1979م، ص102.

أولاً: التصوف والنهضة

هل التصوف ضد النهضة؟ هل هو حجر عثرة فى وجه التقدم، تلك كانت هى التهم الملاحقة له على الدوام، التصوف عدو للحضارة، التصوف عائق للنهضة وليس دافعًا لها، التصوف عزلة وسلبية وليس عمل وديناميكية، والحضارات تُبنى بالجهد والعرق وليس بالعزلة والزهد!!

وتجد هذه التهمة كثيرًا من المستعدين لترويجها والترسيخ لها، ليعرقلوا مسيرة التصوف من ناحية، وليصموه بالعار والشنار ويحملونه سر تأخر الأمة من ناحية ثانية.. وما أبعد التصوف عن هاتيك التهمتين، فأخلاقه سببًا فى التقدم وليس التخلف، والتصوف ذاته قوة وليس ضعفًا، يقول الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود: «والتصوف قوة، ذلك أن نفوس الصوفية هنية عندهم فى سبيل الله، إنهم يبذلونها عن رضا لإعلاء كلمة الله، فهم الذين جشمّوا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التى لم تفتحها الجيوش الإسلامية، وقد كان لهم الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى «إندونيسيا» وغيرها من الأقطار النائية، وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة، والخُلقُ الكريم أكثر مما ينشرونه بالدعاية التى قد لا تُجدى.

وكان الكثير منهم من المرابطين، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية مكرسًا حياته لصدَّ غارات الأعداء.

والعبادة والروحانية، والزهد والورع، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة، يقول ابن سينا عن الصوفى: « العارف الشجاع»

وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت، التصوف روحانية، والروحانية قوة، ولا يتمارى فى ذلك اثنان»[1].

تكمن تلك الروحانية فى هوان الحياة، عدم خشية الموت، عدم خشية أحد إلا الله، عدم رجاء أحدًا سواه سبحانه، أليست تلك بقوة جارفة لا تجرؤ قوة على الأرض على مواجهتها أو منازلتها؟! إذا كان العبد لا يهاب الموت ولا يخشى إلا الله ولا يقيم وزنًا لبشر فأى قوة أقوى من ذلك إذن؟! وأى إرادة تستطيع أن تهزم شخص يتمتع بتلك الصفات؟! والتصوف ليس انقطاعًا عن دنيا الناس، ولكنه فقط إفراغ لتلك الدنيا من القلب كون الله وحده هو المقصود الأول والأخير، هو المعبود الذى لا يُرجى سواه، لكن عند بيع النفس لله، تجد الصوفية أول من يبيعون أنفسهم لله جهادًا فى سبيله، فهم الذين جاهدوا الملوك والسلاطين بألسنتهم وأقلامهم ودمائهم، هم الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم وسيوفهم فى سبيل الله، وكم يحفل التاريخ بوقائعهم شاهدًا عليها.

فكم جاهدوا الملوك نصحاً بألسنتهم دون خوف أو خشية .. وهكذا تقام الدول، تقام على النصيحة من العلماء، والسمع من الحكام، تقام على عدم خشية العلماء فى الله لومة لائم، فإذا صلح العلماء صلح العامة، وما فسدت دول المسلمين إلا بفساد علمائهم.

لقد كتب الإمام الغزالى (رحمه الله) إلى ملك المغرب قائلاً له: « إما أن تحمل سيفك فى سبيل الله نجدةً لإخوانك فى الأندلس و إما أن تعتزل إمارة المسلمين ليقوم بحقهم سواك»[2].

(1) د. عبد الحليم محمود، المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى مع أبحاث فى التصوف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1385هـ، ص342.

(2) سير أعلام النبلاء، ج4، ص218.

واعترض أبو نصر الطائى موكب سليمان بن عبد الملك قائلاً له وسط جنده وحرسه: «سأطلق لسانى بما خرست به الألسن تأدية لحق الله تعالى، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الإختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه .. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غرمًا عند الله من باع آخرته بدنيا غيره»[1].

وخرج الإمام الشعرانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفتوى كثيرًا ما تُغضب الساسة وأرباب السياسة فى مثل عصرنا اليوم، فقال «من لبس جديدًا أو أكل هنيئًا أو ضحك فى نفسه أو سعد فى بيته والأمة الإسلامية فى كرب أو شدة فقد برئ منه الإسلام»[2].

لقد شارك كثير من السادة الصوفية فى الحروب ضد الحملات البربرية التى أتت على ديار الإسلام وتضحياتهم لا تزال نبراسًا يضئ التاريخ ويوقد مشاعله إلى قيام الساعة، منهم أبو الحسن الشاذلى الذى شارك فى صد غارات الصليبين رغم أنه قد كُف بصره، دون أن يُثنيه ذلك عن خوض المعركة معبئًا النفوس مُذكيًا الأرواح لأنه كان يعتقد أن الذى يعمل ويريد أن يعمل يمكنه القيام بهذا العمل كفيفًا كان أم مبصرًا!!

وبطولات نجم الدين كبرى والأمير عبد القادر بالمغرب العربى وعمر المختار بليبيا وغيرهم من أصحاب السير العطرة التى عطرت التاريخ وأضاءت صفحاته، بما يعنى أن التصوف قوة وليس ضعفًا، وبما يعنى أن التصوف فاعلية

(1) نفسه، ج2، ص221.
(2) نفسه، ج4، ص222.

وليس مجرد عزلة، وأن الجهاد فى سبيل الله وبناء الحضارات والمدنيات لا ينافى الزهـد أو يُضاده، فقط ينقصنا الفهم الصحيـح حتى نصدر الحكم الصحيح، حتى لا نتهم التصوف بتلك التهم وحتى لا نعلق عليه فشلنا وتأخرنا.

ثانيا: نقد التصوف عند حسن حنفى

رغـم الوقائع التاريخيـة اللامحدودة التـى تثبت مواقف بطولية للسـادة الصوفية ورغم يقين القلوب بأن زهد الصوفى فى الدنيا وعدم خوفه الموت هما عاملا قوة وليس ضعف، ورغم اليقين التام فى أن أخلاق التصوف الحقيقى من زهد ورضا وتوكل وصبر ومراقبة وورع و إخلاص و يقين هى صانعة التقدم وليسـت عائقة له، إلا أن الإتهام يظل قائمًـا، و يُصر أصحابه عليه، التصوف عائق للنهضة معرقل لها!! و إذا شـئنا النهضـة والتقدم فلابد من القضاء على كل ما هو صوفى، وجاء النقد هذه المرة من رحاب الفلسفة لا من رحاب أحد المتصوفة العدول، جاء موشـحًا بفكر عقلانى مستبعدًا لكل عوامل الروح، بل ومتجنيًا على مسلمات العقل ومصادرات الواقع فى كثير من الأحايين، جاء ذلك كله على لسان المفكر المصرى الكبير الدكتور حسن حنفى.

لقد ألف أسـتاذنا كتابًا مـن جزءين ضخمين يكاد يقـترب أحدهما من الألـف ورقة، أسـماه « من الفناء إلى البقاء» وأصدرتـه الهيئة العامة لقصور الثقافـة المصريـة، لقد جاء الكتـاب بمثابة تاريخ للتصـوف، عرضًا لما كان مـن أقطاب التصوف وقد عـاب العرض كثرة التكـرار والوقوع فى التناقض فى أحيـان كثيرة، بالإضافة إلى عدم تخريج الأحاديث والآيات التى اسـتعان بها مضافًا إلى ذلك كله صعوبة الأسـلوب، لدرجـة أنه لا يفهمه إلا المختص

الذى أكل وشرب مع النصوص الفلسفية، ورغم أن الكتاب فلسفى أكثر منه صوفى، وفرق كبير بين الفلسفة والتصوف للأسف لم يقف عليه كثيرين من المختصين، إلا أنه وجه النقد للتصوف نقدًا يبين مدى تفلسف صاحبه وليس تصوفه، وهذا لا يصح فى التصوف، خاصة عند الكتابة عن الأحوال، لا يستطيع كتابتها إلا من ذاقها بحق، ولن يذوقها بحق إلا من سلك درجات وآليات الوصول إلى الله سبحانه، وليس من يتجرأ على صورة الله سبحانه فى التصوف حينما قال «وفى الثقافة الشعبية لا فرق بين صورة الله وصورة سُمّى السيد»[1].

هذه اللفظة جاءت أثناء حديثه تحت عنوان « هل للصوفية أخطاء» ولا يقتضى سياق الحديث كتابتها أو قولها، وليس من حقى أن أتهمه بشئ فالقلوب علمها عند ربى، ولكن على سبيل الموضوعية، فإن النقد الذى وجهه للتصوف دليل على أنه لم يقرأ التصوف جيدًا، أو لم يستوعب مقاصده جيدًا على الرغم من أنه كتب فيه ما يزيد عن ألف وخمسمائة ورقة بكثير، إلا أنه ردد ما قيل سابقًا دون أن يبذل جهدًا لتحليله.

لقد توسع د. حسن فى نقده للتصوف، ولكن للأسف لا ينسحب هذا النقد بأسره سوى على المنتسبين من أدعياء التصوف وليس أرباب الطريق الحقيقيين، بل حتى نقده للزهد عند السادة أرباب الطريق جاء نقدًا باهتًا لا روح فيه ولا نبض، نقد خرج من فيلسوف ليس له علاقة بالتصوف، لأن التصوف أخلاق إسلامية بحتة، ممارسة بالجوارح ثمرة ليقين القلب وقناعة

(1) د. حسن حنفى، من الفناء إلى البقاء، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ج1، سنة 2015م، ص858.

النفس، التصوف ليس طقوس، سماع ورقص وتمايل، التصوف تربية للنفس وارتقاء بها وسمو لها، التصوف تهذيب للسلوك وترويض للجسد، تلك هي أخلاقه التي للأسف جاء نقد حسن حنفي لها، ليقع في معاداة لا مع التصوف بل مع أخلاق الإسلام ذاته، يقول حسن حنفي: «والغلط في التوسع والتضييق في الدنيا وترك الاكتساب، لا تكون السعة إلا للأنبياء والصديقين لأنهم ينفقون على الأغيار ويأخذون الأسباب بالحقوق لا بالحظوظ أو من توهم أنه في حال فهو خاطئ، وغلط من ظن التقلل بالتقشف ولبس الدون وأكل القليل وحرَّم المباحات، وطبقة أخرى تأخذ القوت بالكسب وهذا ليس غلطًا، والتوكل هو العزيمة والكسب رخصة وليس للإنسان إلا كسبه ولا يشغله عن الصلاة، إنما الخطأ فيمن طعن على المكتسبين وقعدوا معتمدين على الأحوال وقوة الإيمان هي قوة الإرادة»[1].

ومن يا سيدي قال بأن التصوف تواكل وليس توكل، مَن من الصوفية لم يكن له عمل يتكسب منه، لكن عمله وماله ودنياه، كل ذلك كان في أيديهم ولم يكن في قلوبهم، إنهم يا سيدي لمَّا طردوا الدنيا من قلوبهم أتت إليهم راغمة وارتمت تحت أقدامهم، ففي الوقت الذي كان يقف فيه العلماء على أبواب الأمراء متوسلين متقربين، كان الأمراء يقفون على أبواب السادة الصوفية متوسلين متقربين أيضًا دون أن تُفتح لهم الأبواب، في الوقت الذي تعلقت فيه قلوب علماء الظاهر بالدنيا، تعلقت قلوب السادة الصوفية بالله وحده، فلمّا صدقوا في حبهم صدقت أحوالهم وكفاهم الله هموم الدنيا وشغلها، ثم إذا كنت تقدم نقدًا للزهد على أنه مشروع تجديدي، فليس هذا

(1) نفسه، ج1، ص858.

تجديـدا، لأن مـا قلته أنت فى كتابك يتناقض تمامًا مـع عنوانه «من الفناء إلى البقاء» لأن العنوان يعنى حياة الصوفى بعد وصوله إلى مقام الفناء فيعود عالمًا مشـفقًا على الخلق عطوفًا عليهم رحيمًا بهم، ولكنك جعلت من أخلاقه عائقًا للنهضـة، ومن أحواله تواكلاً لا توكلاً، وجعلت الزهد دليل تخلف، بل قدته إلى درجة الحرام على اعتبار ترك المباح، وهذا كله دليل على بُعد صاحب هذا النقد تمامًا عن التصوف.

ثـم يوجه د. حسـن نقده إلى مقـام الـورع، مقام تحرى الحـلال مخافة الوقوع فى الحرام، وهو ما قدمنا دليل مشروعيته من القرآن والسنة، فيذهب إلى خطأ هذا السـلوك فيقول: «وغلطت فرقـة فى الإباحة والحظر، وجعلوا الأشـياء فى الأصل على الإباحة، وقد وقع الحظـر للتعدى، وهو مبدأ أصولى، وأقـرب إلى الطبيعة والفطرة، أما جعل الأشـياء فى الأصـل على الحظر حتى تتـم إباحتها بالأمر فهو أقرب إلى النظرة المسـيحية بسـبب الخطيئة الداخلة فى نسـيج الكون، وليس أحدًا ملزمًا بالشرائع السابقة ولا يتساوى الأصلان، والخير أرجح من الشر، والحلال أرجح من الحرام»[1].

ثـم يعرض د. حسـن حنفى لما يظنه مثالب وأخطـاء وأغلاط التصوف فيقـول فى نص طويـل: « ومن الخطأ تـرك الطعام و إيثار العزلـة والانفراد، فإذلال النفس ضد اثباتها، دخول كهوف الجبال واعتزال الناس ليس طريقًا لإصلاح العالم، وفعل ذلك اختيار شخصى ليس سلوكًا للناس جميعًا، وتكلف آخـرون لبس الصوف والمرقعات المعمولة والمصبوغات وتعلموا الإشـارات وظنـوا أنهم من الواصلين، وهذه حالات خاصة طبقًـا لقوة الدافع على العلم

(1) نفسه، ص 858.

من دون تكلف، وقوم نصبوا أنفسهم لقطع الشهوات، وهو غلط لأن قطع الآلة لا تقضى على الشهوة، وقوم هاموا على وجوههم فى البرارى والبوادى بلا زاد ولا ماء متوهمين أن ذلك حقيقة التوكل. وهو خطأ لأنه ضد آداب السلوك. وقوم تكلفوا الإشارات وحفظوا الحكايات وظنوا أنهم أصحاب الأحوال. قوم عمدوا إلى الأوراد والبكاء والخشية وظنوا أن هذا هى الحال المقصود. وهى أشياء لا تأتى فى البداية بل وفى النهاية. والبدعة انحراف عن الحق. ومن طُبع على البدعة متى يشبع فيه الحق؟ وظن قوم أن التصوف هو السماع والرقص والدعوات والإرفاق وأشعار العزل. وهو خطأ لأن كل قلب ملوث بحب الدنيا فكل ما يأتى به من مظاهر الوجد تكلف[1].

ومنهم من غلط فى الفقر والغنى وتفضيل الغنى، الغنى بالله نعم وليس الغنى بأعراض الدنيا، والفقر إلى الله مقرون به الصبر والشكر والرضا والتفويض والسكون والطمأنينة وتوهمت فرقة وجعلت الفرقة غير المقرون بهذه المقامات والأحوال أفضل من الغنى، والنفس محتاجة، وليس من صفات البشر الطمأنينة والسكون. والفقر مكروه ولا يلائم الطبع. والغنى من الحقوق. الفقر فى ذاته محمود ولكن محبته علة، والعلة مذمومة[2] والغنى بالدنيا فى ذاته

(1) وهذا رأى صواب مائة بالمائة، ولعله الصواب الوحيد فى هذا النقد، فالتكلف بحثاً عن الوجد تكلفاً فى حصول الوجد ذاته، لأن التصوف بما فيه الوجد قناعة شخصية وممارسة جسدية نابعة عن إيمان بالقلب، وفضلاً عن ذلك ليس التصوف مجرد سماع فقط يا سيدى.

(2) هذا إذا كان الفقر ليس زهداً فيكون علة، لكن الفقر لو كان زهداً قائماً على اختيار صاحبه وقناعته الشخصية فكيف يكون علة، لقد أتت الدنيا راغمة وارتمت تحت أقدام بعض الصوفية فأداروا لها ظهورهم وولوا بعيداً عنها فكيف يكون الفقر علة وقد جاء عن اختيار؟

مفهوم إلا إذا صاحبه البر. والفقر والغنى حالان للصبور. ومع ذلك فالطبيعة تكره الفقر أكثر مما تكره الغنى[1] فهما لا يستويان. وليس المقصود الفقر وحده بل آداب الفقر وغلط قوم فى الفقر لم يكن لهم زهد وكانت لهم رغبة وهمم وزينة. فقبلوا العطاء لنفوسهم. وزعموا أنه اختبار فخالفوا السلف فى التمييز بين الابتلاء والاختبار[2].

وظن قوم فى الصفاء والطهارة دائمتان وتامتان .وهو خطأ لأن الإنسان لا يصفو تمامًا على الدوام. هو حال يأتى ويذهب. والطهارة لقلب العبد من الحسد والشرك. أما الطهارة من جميع صفات الخلق على الدوام فخارج عن نطاق البشرية. وغلط آخرون فى عين الجمع لأنهم لم يُضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة احترازًا ألا يكون شىء مع الله. ففرضوا الجبر على حركاتهم. وأسقطوا الملامة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود[3] والبعض جعل نفسه معذورًا. وهو خطأ ناشئ عن إضافة الفرع إلى الأصل أو إضافة الأصل إلى الفرع. هو خطأ بين الحقوق والحظوظ وبين الحق والباطل وبين الأمر والنهى»[4].

(1) هذه هى الطبيعة البشرية عند العوام، لكن الخواص لا تمثل الدنيا عندهم قليلاً ولا كثيراً، ولذا سموا بأهل التصوف، فى أحد الأسباب أنه شبه إلى لبس الصوف وخشونة العيش.

(2) وهذا خطأ فى التمييز أيضاً بين أهل التصوف وغيرهم لأن أهل التصوف يمتزج الزهد بنفوسهم ويخالط شغاف قلوبهم، وهذه هى النقطة التى لم يستوعبها جيداً د. حسن حنفى فأتى نقده مشوهاً.

(3) وهو مردود عليه فى هذا الفصل إذ لا يعترف السادة الصوفية بإسقاط الحدود والأعمال، وكيف ذلك وهم يتقربون إلى الله بالأعمال، فرائض ونوافل.

(4) المرجع نفسه، ص859 وما بعدها.

هذه أبرز النقاط النقدية أو إن شئت فقل النقضية التى ساقها حسن حنفى ضد التصوف، منها ما هو صادق بالفعل، ولكنه يصدق على أدعياء التصوف وليس على أرباب الطريق، وكثير منها مفترى على التصوف بينت بعضه فى الهامش وأعرضت عن بعض زهدًا فى الرد، ليقينى بأن التصوف خلاص للإنسانية وليس عائقًا لها كما يدَّعى دكتور حسن حنفى.

و يستمر نقد الرجل أيضًا، لكنه فى هذه المرة ليس نقدًا لدرجات أو مقامات التصوف، ولكن لرجال التصوف أنفسهم ليفترى على الطرق وعلى مشايخ الطرق، يكفى دلالة على ذلك قوله عن كل أهل التصوف ما يقدح فى عقيدتهم، بل و شرفهم أيضًا إذ يقول: «والصوفية أنفسهم يكفرون بعضهم بعضًا. و يفرقون بين تصوف سنى أخلاقى ووحى بسيط وتصوف شيعى يقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود. وهى قسمة ظالمة لأن من السنة من يقول عقائد الصوفية[1] وعلى رأسهم ابن عربى فى وحدة الوجود، ومن الشيعة من ينحاز إلى التصوف الخلقى وعلى رأسهم على بن أبى طالب وجعفر الصادق»[2].

يا سيدى، من الذى قال أن الصوفية يكفرون بعضهم البعض؟! وهل ما يدين بمذهبنا هذا فى التصوف وهو مذهب أكابر الصوفية من أهل السنة يكون من أخلاقه أن يُكفر أحدًا؟!! تلك إذن قسمة ضيزى!!

ثم يستمر هجومه على التصوف فيوجه النقد إلى الطرق الصوفية شأنه فى ذلك شأن علماء الظاهر الذين قالوا عن التصوف بأنه انقسم إلى فرق وكانوا

(1) هو يقصد عقائد الشيعة وليس الصوفية ولكن خانه التعبير ربما.
(2) د. حسن حنفى، المرجع السابق، ج2، ص875، ولكنى أتساءل هل علىً بن أبى طالب شيعى أم فقط نسبت إليه الشيعة؟!

طرائق قـددًا، دون أن يعلموا أن اختلاف مسـميات الطرق ليس اختلافًا فى أصـول التصوف، ولكنه محض اجتهادات لأئمـة التصوف بمثل ما اجتهد أئمة الفقـه فصار عندنـا عدة مذاهب، هكذا التصوف بالضبـط، كل فرقة تُكن احترامًا لأختها، وليسوا متفرقين ولا مشتتين ولا طرائق قددًا، بل تجد مجموعة مـن عشرة أفراد أصدقاء كل منهم ينتمـى إلى طريقة مختلفة عن الآخر دون أن يبدو اختلاف طرقهم فى نقاشـاتهم أو حواراتهم، لأن منبع علمهم واحد، ورؤيتهم واحدة، وتربيتهم الداخلية واحدة، ليسـت الطرق سوى مسميات فقط يا سيدى نسبة إلى المشايخ، ولكن الكل واحد، الكل ذو فكر وقناعات واحدة، وليس تعدد الطرق مـبررًا أبدًا للتقاتل والتكفير كما يدَّعى البعض، يقول د. حسـن حنفـى: « وتكتب كل طريقة فى مناقب شـيخها مع ألقاب التعظيم والتبجيل والتفخيم والإجلال فكل شـيخ هو العلامة، العالم، قطب العارفين، الشـيخ العارف بالله، مجدد الألف الثـانى، حضرة مولانا، المجددى العثمانى، الولى الكامل والقطب الشـامل.. الخ وبعد ألقابه تأتى الدعوات له بعد الاسـم مثل قدس اللـه سره، نفحنا الله بإمداداتـه، وعمنا بنفحاته، غفر الله ذنوبه وسـتر فى الدارين عيوبه»[1]، وهذه سمة عامة ليست فى التصوف فقط ولكن فى كل أرجاء الدنيا من الدين والسياسة والاقتصاد والفكر، فعند بعض السـلفيين تجد تقديمًا للإمام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد يطول لصفحتين، لو قام الرجل من مقامه وقرأ ما كُتب فى تقديمه لقاتل من كتب وقدَّم، وكذا تجد على المسـتوى السـياسى فى تقديم السياسيين، مددًا ونفاقًا وكذبًا لا حدَّ له، بل على مستوى الفن والرقص تجد تقديمًا للفنانين والراقصات بأنهم باعثوا نهضة

(1) المرجع السابق، ج2، ص87..

الفن ومجددوا طرق الرقص ومبدعوها وأنهم بنوا الأمجاد وحرروا البلاد وأطعموا العباد، تقرأ هذه الخرافات كثيرًا في كل مذهب وعند كل طائفة، بل وعند أرباب الصنائع وليس في التصوف وحده، وليس هذا مبررًا لحدوثه في التصوف أو في الإسلام عامة، بل جف الريق من الحلق من دعوات سابقة لي ولغيري بألا يتصدى للكتابة في التصوف إلا المختصين وبألا يكتب في التراث أو تحقيقه إلا المختصين فقط لأجل تنقية الخطاب الإسلامي والصوفي والفقهي والتراثي من تلك العبارات التي تشينه، ذلك أن الإسلام ليس فيه عصمة لأحد حتى نقول في تقديمنا عن أحد المشايخ «عصمه الله»، هذا خطأ جسيم، الإسلام ليس فيه مدحًا ولا إطراءً ولا يعرف هذه اللغة ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 32] هذه آفة عامة ينبغي مواجهتها فورًا.

إذن، أحسن الدكتور حسن حنفي في هذه الوجهة النقدية، لكنه أساء وتجاوز في فهمه لحقيقة الطرق الصوفية، وظن أنها السبب في ضياع الإسلام وانتشار هويته فقال: «أصبحت الطريقة، تيجانيه أو رفاعية أو شاذلية أو نقشبندية لقبًا للعلماء إضافة إلى اللقب العقائدي، أشعريًا أو ماتريديًا، واللقب الفقهي، مالكيًا أو حنفيًا أو شافعيًا أو حنبليًا، أو فلسفيًا مثل الإشراقي أو الطبيب أو الحكيم. فاختنق الإسلام داخل الطرق الصوفية والفرق الكلامية، والمذاهب الفقهية، والمدارس الفلسفية، وضاعت هوية الإسلام الأولى ما قبل المذاهب»[1]. وهذا خطأ في فهم الناقد، لأن الإسلام لم يضع أو تندثر هويته بسبب كثرة المذاهب الفقهية والصوفية بل ضاع لأن الناس أعرضوا عن الإسلام برمته، أعرضوا عن جوهر تعاليمه، عن صفاء

(1) نفسه، ج2، ص873.

كأسه ومعينه... الإختلاف الفقهى والصوفى رحمة للمريدين والسالكين، ابن حنبل يبيح شيئًا لا يبيحه مالك، ومالك يبيح شيئًا يحظره الشافعى، ونحن علينا أن نأخذ ما يناسبنا، كذلك بعض السادة يبيح الغنى فى حين يحظره البعض، والبعض يبيح السياحة ويحظرها البعض ونحن نأخذ ما يتفق معنا وينسجم وطبائعنا، الاختلاف رحمة يا سيدى وليس نقمة، وليست المشكلة فى الاختلاف ذاته بقدر ما تكمن فى عدم وجود ثقافة للاختلاف، بل الموجود على الدوام ثقافة الخلاف والإرجاف والتخوين، المشكلة فى الإعراض عن الإسلام جوهرًا ومضمونًا وتعاليمًا، تلك هى المشكلة الحقيقية، وليست أبدًا فى كثرة المذاهب الفقهية أو تعدد الطرق الصوفية وفى ملمح آخر أرى من سنا برقه الوعى التام لدى د. حسن حنفى حين يقول: «ثم طغت المذاهب على الأوطان فى قسمة العراقيين إلى كردى وشيعى وسنى وتركمانى، والخليجيين إلى سنى وشيعى، واليمنيين إلى زبدية وشوافع، واللبنانيين إلى سنة وشيعة وموارنة، والسوريين إلى دروز ونصيريين وسنة، والأردنيين إلى بدو وحضر، والسعوديين إلى نجد وحجاز، والمصريين إلى مسلمين وأقباط، والمغاربة إلى عرب وبربر. تحطمت وحدة الأوطان على نصال المذهبية والطائفية والعرفية حتى تأخذ إسرائيل شرعية جديدة كدولة قومية يهودية، من طبيعة الجغرافيا السياسية للمنطقة بدلاً من الشرعية الدينية الأسطورية القديمة، العهد أو الميثاق والوعد الإلهى وشعب الله المختار والمعياد. وقد يُضاف العرق مثل الكردى، والمدينة مثل البغدادى والبصرى والكوفى والغرناطى والأشبيلى والقرطبى والطليطلى أو القطر مثل العراقى والمصرى والأندلسى»[1].

(1) نفسه، ج2، ص873.

نعم يا سيدى، تلك آفة كبرى أحسنت فى وصفها، لكن ليس التصوف سببًا لها، بل التصوف هو الخلاص منها، هو الخلاص الآمن من كافة هذه السلبيات، لأن التصوف قوة روحية، والروح لا تُهزم أبدًا لأنها سر الوجود، وما ضاعت أوطاننا العربية إلا بضياع أخلاق التصوف، الصدق والإخلاص، كذبنا على شعوبنا ونافقنا حكامنا وهللنا للمخطئين والمقصرين وهتفنا للمخادعين وسبحنا بحمد الظالمين ثم لم نخلص قلوبنا لما تعلّمناه، فالعالم يفصل بين ما تعلمه وما يعمله، ويبرر ذلك بأن الزمان غير صالح، والبيئة فاسدة، ولا توجد بيئة صالحة لاستقبال العلم الصالح، وهكذا على الدوام، فى كل مجال، وفى كل ميدان، كتمنا قول الحق، وحدنا عن الصدق، ولم تخلص قلوبنا لما تعلمناه ولما اقتنعت نفوسنا بأنه الصواب، فأصبح هذا هو حالنا، بل وحال العالم من حولنا.

لا تُلقى بالتبعة على التصوف يا سيدى، فالتصوف خلاصًا وليس عائقًا، دافعًا وليس مانعًا، فقط فى حاجة إلى قلوب توقن وتؤمن، وعقول تفهم وقلوب تُبصر، فتصير أحكامنا موضوعية، وأفهامنا حيادية، ليكون حكمنا النهائى صحيحًا. ثم يتوسع د. حسن حنفى فى نقده للتصوف عبر مشايخه وشيخ مشايخه، فيتهمهم بالتقصير ويلوم عليهم فى هذا التقصير، بل ويتهمهم بالسير فى زفة السلطان وما أبشعها من تهمة ينأى عنها كل صوفى بحق فضلاً عن المشايخ وشيخ المشايخ، إذ يقول: «واليوم أصبحت الطرق، ومشايخ الطرق، وشيخ مشايخ الطرق، عصب التصوف. فالطرق تحولت إلى موالد شعبية دينية فى المولد النبوى، وإحياء المناسبات الدينية، رأس السنة الهجرية، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر وليالى رمضان. يلتف حولها الجمهور ويشارك فيها الكبار والصغار وتباع الحلوى، وتطلق الألعاب النارية، وتقام

مسابقات ألعاب قوى، وتنصب المراجيح، وتنفخ البالونات الملونة، وتُلبس الطراطير والأقنعة، وتُطبخ الأطعمة الشعبية. وفى الخلف تباع المخدرات، وفى المقابر يمارس الجنس الحر، لا فرق بين الدينى والدنيوى، بين النخبة والجماهير، وينتصب مشايخ الطرق، ويترأسون المسيرات الشعبية. وحولهم ترفع الأعلام والبيارق. وأمامهم حامل المصحف المُذهَّب المبرقش والمغلف بالقطيفة الحمراء كالصنم. لا فرق فى ذلك بين موالد النبى ﷺ والأولياء، وحفلات الأعراس وزفة العروس.

ويسعدون بالسلطة الشعبية وبمساعدة السلطة الرسمية، فشيخ مشايخ الطرق الصوفية معين من رئيس الجمهورية كشيخ الأزهر. والمشيخة كلها جزء من الرياسة كالأزهر، لا فرق بين الفقيه والصوفى كلاهما فى زفة السلطان، يصدرون فتاوى وأحكام لتبرير قراراته السياسية سلمًا أو حربًا، رأسمالية أو اشتراكية، ديكتاتورية أو ديموقراطية... الطرق والمشايخ والمشيخة جزء من الدولة كالجيش والشرطة والمؤسسات التعليمية والإعلام»[1].

وهذا النقد له طرفان، الأول ينسحب على أدعياء التصوف الذين يظنون التصوف مجرد سماع وموالد وزفة وطبل وزمر لا أكثر، وهذا ليس واردًا بحال عند أهل الطريق الحقيقيين، نعم، السماع جائز، لكن له آداب وشروط ثم إنه ليس كل التصوف كما يظن البعض، وكما يختزله البعض فى الحفلات والموالد، فهو نقد غير موضوعى فى هذه الناحية.

أما الطرف الآخر فينسحب على شيخ المشايخ ويتهمه - فيما يظنه اتهامًا -

(1) نفسه، ص874.

بأنه جزء من الدولة يسير فى موكب السلطان، وأنا أسأل كل علماء الأصول... هل طاعة شيخ المشايخ لولى الأمر تُعد اتهامًا أم فضيلة، حسنة أم سيئة، مقبول أم مرفوض؟! ألم يأمر القرآن بطاعة ولى الأمر وكذا السنة ولو ضرب ظهرك ما لم ينه عن الصلاة، ألم يحث النبى ﷺ على السمع والطاعة، وفى مقاصد الشريعة الإسلامية يقدم دفع المضار على جلب المصالح، وطاعة ولى الأمر ولو كان ظالمًا مقدمة على الخروج عليه ولو كان فى الخروج مصلحة، كون المضار التى يسببها الخروج أكثر وأكبر من المصالح التى يحققها، وكم أثبت التاريخ صحة هذه الرؤية لعلم الأصول وللنبى الكريم ﷺ وكفى بسوريا دليلاً قائمًا للعيان حتى اليوم.

إذن هذا نقد فى صالح التصوف وليس ضده، لأن أهل التصوف مخلصين، سالمين، لا يعادون أحدًا، وليس لهم مصالح شخصية ذاتية، هم يدفعون المركب نحو المسير أيًا كان قائده، فهم لا يرجون سوى الله وحده، وليس لهم مصلحة سوى أمان ورخاء البلاد الإسلامية وليس تخريبها وإشعال الفتن فيها كما يفعل المدَّعون للإسلام والمنتسبون للجماعات الجهادية والتكفيرية. لقد ظن د. حسن حنفى أن هذا النقد للمشايخ ولشيخ المشايخ يُعد نقدًا جوهريًا كالظمأن أتى سرابًا ظنه ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

إن كل حرف ينطق به د. حسن حنفى يثبت أن التصوف قوة وهو لا يدرى، يؤيد التصوف من حيث أراد نقده، يقيمه من حيث أراد هدمه، يُسوى أمامه الطريق من حيث أراد عرقلته، ليبقى التصوف هو القوة الكبرى القادرة على قيادة الأمة، ولتبقى أخلاق التصوف هى نبض وجوهر هذا الدين ومعينه الصافى، شاء من شاء، وأبى من أبى.

وفي ملمح آخر أيضًا يوجه د. حسن حنفي نقده لمقامات وأخلاق التصوف نفسها، ليصنع مقامات بديلة ظنها غير موجودة عند الصوفية ليقول لنا: «وإذا كان التصوف قد نشأ نشأة داخلية كحركة مقاومة سلبية لمظاهر البذخ والترف والتكالب على الدنيا والصراع على السلطة والاقتتال عليها فإنه قد يعود اليوم في ظروف جديدة ومرحلة تاريخية مغايرة. فالمقاومة ليست ميئوسًا منها في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير والصومال، ومن ثمّ تتغيَّر المقامات والأحوال من الصبر والتوكل والرضا والقناعة والتسليم والخوف والخشية والفقد إلى مقامات وأحوال أخرى من مقاومة وتمرد وغضب وثورة واعتراض ونفي واحتجاج وهذا هو القصد من «من الفناء إلى البقاء»[1].

هذه آخر فقرة كتبها الرجل في كتابه، وتلك كانت أمنيته. وأنا أسأل كل علماء الدنيا بما فيهم علماء الأصول والفقه بل والفلاسفة أيضًا، هل مقامات التصوف التي ذكرها الرجل من صبر وتوكل ورضا وقناعة وتسليم وخوف وخشية مما يُضاد المقاومة والجهاد في سبيل الله والثورة على الظالمين وتحرير الأرض والعرض في بلادنا العربية؟ هل ثمة تعارض بين الإثنين؟!

لقد خُيل للدكتور حسن حنفي هذا التعارض عبر هذا النقد طولاً وعرضاً لأنه قد غاب عنه أن التصوف قوة وليس ضعفًا لأنه قائم على الروح وليس على البدن، وأنت لو أتيت بجنديين أحدهما يحب الدنيا والآخر يزهد فيها، فإن أقدمهما على المخاطر والتضحية والبذل هو الزاهد وليس المحب للدنيا، وبالتالي فالتصوف قوة من هذا الوجه، لأن نفس الصوفي تهون عليه،

(1) نفسه، ص876.

والدنيا بأسرها هينة فى عينيه، هى لا شىء إطلاقًا، لا تزن فى فكره ولا فى قلبه مثقال ذرة، وهذه هى النقطة الجوهرية التى لو فهمها الكثيرون لغيَّروا موقفهم من التصوف ولعلموا أن التصوف قوة وليس ضعفًا، فليست العزلة ضنًا بالنفس عن الجهاد، ولكن العزلة تربية للنفس لتقدم على الجهاد، هذا هو الفارق الذى لم يفهمه ناقدوا التصوف.

ثم يبدى د. حسن حنفى تبرمه وتذمره من التصوف ككل ويتنبأ بانهياره فيقول تحت عنوان «انهيار التصوف» ما نصه: «ومثل كل ظاهرة حية قام التصوف وبلغ الذروة وانهار ودخل فيه من ليس منه. وتحول إلى مجرد شعوذة ولبس ممزقة. وأصبح خاويًا، جهلاً بلا علم. ولبس الخرقة لم يكن فى زمن الرسول ﷺ[1]، أصبح التصوف اسماً ولا حقيقة بعد أن كان حقيقة ولا اسمًا. فقد خضع التصوف لظاهرة القيام والسقوط والازدهار والانهيار.

حدث التدهور من القرون الأولى واستمر فى كل عصر فحاول الصوفية النهوض من جديد ثم انهار فى المرحلة الرابعة وتحول إلى طرقيه[2] وأشكال ورسوم كان قد رفضها التصوف من قبل[3].

(1) يا سبحان الله، وهل المشكلة كلها فى لبس الخرقة، لا يا سيدى لبس الخرقة كرمز على الزهد فى الدنيا ولا يلبس الخرقة إلا من أخرج الدنيا من قلبه والنبى ﷺ كان يلبس الثياب المرقعة وأهل الصفة فى الأحاديث الصحيحة لم يكن لهم ثياب تستر كامل عورتهم.

(2) قصر مشكلة التصوف على تعدد الطرق الصوفية دليل على عدم وجود أدنى صلة للناقد على هذا الأساس، لأنه لو كان لديه صلة بالتصوف لعلم أن هذه الطرق واحدة وأن ابنائها متحابين متعاونين غير مختلفين أبداً بل قد يكونوا أصدقاء ولا يعرفون مسميات طرق بعضهم البعض.

(3) د. حسن حنفى، المرجع السابق، ص864.

تلك رؤية الرجل، خلاصتها فى كلمتين «التصوف مقدم على الانهيار»، والرد عليه فى كلمتين أيضًا «سيبقى التصوف ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله».

التصوف دافع للنهضة... التصوف مع النهضة وليس ضدها... دافع لها وليس عائقًا أمامها... هذا لا مرية فيه، وقد قدمنا أسبابه فيما مضى.

تعقيب

مما سبق دراسته يمكننا استخلاص أهم النتائج التالية:

1) التصوف كعلم للأخلاق لا يبتعد كثيرًا عن الحياة الواقعية بل هو علم للحياة...للوجود الإنسانى..للأخلاق التطبيقية.

2) ليس معنى تركيز التصوف على أعمال القلوب والزهد فى متطلبات الحياة الدنيا ابتعاده التام عن ماديات الحياة، بل هو يهتم بها لكنه يهذبها..يطلب الدنيا..لكن باليد وليس بالقلب..يعمر ويبنى ولكن عينه على رضا الله وخلو القلب من كل ما سواه.

3) التصوف ليس أبدًا عدوًا للنهضة كما قال الدكتور حسن حنفى ولكنه يحمل أولى مشاعل النهضة الروحية والمادية القويمة.

4) مقامات التصوف التى هى مقامات أخلاقية وروحية بالأساس ليست ضد الثورة ضد الطغاة أو المحتلين وليست ضد البناء والعمل بل شيد رجال التصوف تاريخًا بطوليًا لا يمكن هضمه أبدًا.

5) ما أروع نقد الدكتور حسن حنفى لتفكك الأمة الواحدة..أبناء

خير أمة... وأحفاد الرجال بحق..وهو نقد يستوجب التوقف عنده وتأمله كثيرًا.